ISSN: 2090 – 0449 Online
Universal Impact Factor (UIF), 2015.
Impact Factor for Arabic Scientific Journals, 2016.

انعكاسات السياسة الاستعمارية على العلاقات بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس ١٨٣٠ـ ١٩٥٤

د. رضوان شافو

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة الوادي – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

تتناول هذه الدراسة انعكاسات السياسة الاستعمارية على التواصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس (١٨٣٠- ١٩٥٤م)، مبرزين من خلالها طبيعة العلاقات بين الجزائر وتونس خلال فترة الاحتلال الفرنسي، وأهم مظاهر التواصل الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والعسكري بين المنطقتين، حيث وصل هذا التواصل إلى حد الانصهار التام من خلال الهجرة المتبادلة والحركة التجارية بين الشعبين، والتعاون العسكري بين مختلف القبائل الحدودية الجزائرية - التونسية ضد القوات الفرنسية، وهذا ما عبرت عنه السلطة الفرنسية في تقاريرها الإدارية والعسكرية الشهرية، كما تضمنت الدراسة أيضًا أهم انعكاسات السياسة الاستعمارية الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والثقافية على العلاقات بين المنطقتين، حيث طبقت السلطة الفرنسية أساليب ووسائل قمعية لتقيد حركية التنقل والهجرة، وكذا الحركة التجارية والعلمية، وتضييق الخناق على منابع المقاومة على الحدود الجزائرية - التونسية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٨ ديسمبر ٢٠١٤

تاريخ قبول النشر: ٣٠ مايو ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

تاريخ الجزائر الحديث، تاريخ تونس الحديث، الاستعمار الفرنسي، الطرق الصوفية، حركة الهجرة

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

رضوان شافو. "انعكاسات السياسة الاستعمارية على العلاقات بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس (١٨٣٠- ١٩٥٤)".- دورية كان التاريخية.- العدد الرابع والثلاثون؛ ديسمبر ٢٠١٦. ص٩ – ١٩.

مُقَدِّمَة

لقد جمعت بين المنطقتين الجزائر وتونس أواصر الصداقة وعمق الصلات الحضارية عبر العصور التاريخية القديمة والحديثة والمعاصرة، وذلك بحكم الروابط الدينية والاجتماعية والاقتصادية، والتقارب الجغرافي حيث شهدت العلاقات بينهما تعايشًا وانفتاحًا وتضامنًا كبيرًا بين الشعبين، ويتجلى ذلك بوضوح خلال الفترة الاستعمارية، وذلك منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة ١٨٣٠م، حيث أبدى الشعب التونسي تضامنه وتعاطفه مع الشعب الجزائري وفتح بيوته وأراضيه لاستقبال المهاجرين الجزائريين الفارين من بطش الاستعمار الفرنسي، على خلاف المواقف الرسمية للبايات التونسيين التي كانت مغايرة للمواقف الشعبية التونسية، إذ تعاون بعض البايات التونسيين مع ضباط الحملة الفرنسية على الجزائر بعد أن أغروهم بتعيين أميرين تونسيين من العائلة الحسينية على كل من بايلك قسنطينة وبايلك وهران، واثأروا فيهم رغبة التوسع دون أن يكون في استطاعتهم ذلك، ودون أن يعرفوا بالضبط الأغراض والأهداف الاستعمارية لأولئك الضباط الفرنسيين. وانطلاقًا من هذا السياق التاريخي انشغالنا العلمي الذي سنعالجه في هذه الدراسة بعد التطرق إلى طبيعة العلاقات بين الجزائر وتونس خلال فترة الاحتلال الفرنسي ومظاهر التواصل

بين منطقتي الجنوب الشرقي الجزائري وتونس هو: ما هي أهم انعكاسات السياسة الاستعمارية على العلاقات بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس (١٨٣٠- ١٩٥٤) ؟

أولاً: مظاهر التواصل بين المنطقتين

على الرغم من المواقف الرسمية التونسية، إلا أن مظاهر التواصل بين الشعبين في الفترة الاستعمارية وصلت إلى قدر كبير من الانفتاح ، حيث ألغى هذا التواصل كل الحدود الجغرافية التي تفصل بين المنطقتين، وخصوصًا مناطق الجنوب الشرقي الجزائري والجريد التونسي، والتي عبرت عنها التقارير الفرنسية بالانصهار التام بين مختلف القبائل الحدودية الجزائرية والتونسية، وهذا ما أكده الدكتور أبو القاسم سعدالله في كتابه "أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر" قائلاً: "بأن مناطق الجنوب الشرقي الجزائري كانت تتحرك بدون حدود إلى حوالي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، فمنطقة الزيبان والجريد ووادي ريغ وسوف كانت تشكل وحدة متكاملة اقتصاديًا واجتماعيًا وروحيًا وثقافيًا، وكان لانتشار الطرق الصوفية فيها دورًا في صنع هذه العلاقات"،[١] الأمر الذي دفع بالسلطة الاستعمارية إلى الإدراك بأهمية الطرق الصوفية والزوايا ودورها الاجتماعي والثقافي والسياسي في التواصل بين المنطقتين، لذلك أصدر الحاكم العام منشور سنة 1847م لمراقبة الزوايا وأتباعها، حيث يذكر دونوفو (De neuveu) بأن: "...الزوايا أرست قواعد لعلاقات بين الأفراد،فصارت أداة اتصال فائقة السرية."[٢]

فقد نجحت الزاوية الرحمانية العزوزية بقيادة مصطفى بن محمد بن عزوز، والقادرية بقيادة محمد بن إبراهيم بن أحمد بالجريد التونسي بتفعيل التواصل الروحي مع منطقة الجنوب الشرقي الجزائري من خلال تعليم وتخريج عدد كبير من المثقفين والمعلمين، وأتباع الطريقة في المنطقة، كما اتخذ العديد من مشايخ الطريقة بالجنوب الشرقي الجزائري من الجريد منطلقًا في نضالهم ضد الإستعمار الفرنسي ومنهم ابن الناصر بن شهرة أحد أتباع القادرية، والذي التجأ إلى نفطة وتوزر بالجريد بعد دخول الفرنسيين الأغواط سنة ١٨٥٣م، واتخذها منطلقا لشن هجومات على الفرنسيين في الجزائر، بالإضافة إلى إقامة الأمير عبد القادر فيها بعد ثورة ١٨٧١م، كما عملت القادرية على تحريض سكان الجريد وقبائل النمامشة على الالتحاق بصفوف المقاومين.[٣]

زيادة على ذلك كانت الأراضي التونسية ملاذًا آمنًا للمقاومين الجزائريين في الصحراء الجزائرية على أمل تجديد المقاومة ضد الفرنسيين، حيث تذكر التقارير الفرنسية أن شيخ الحنانشة محمد الحسناوي بن بلقاسم التجأ إلى تونس بعد فشل مقاومة كلا من الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي،[٤] كما انسحب أخر سلاطين بني جلاب سلمان بن علي الجلابي بعد سقوط إمارته واحتلال تقرت سنة ١٨٥٤م إلى منطقة نفزاوة ، ثم إلى توزر بمنطقة الجريد التونسي، وهذا ما حدث أيضًا مع المقرانيين عندما فشلت مقاومة المقراني والحداد سنة ١٨٧١م، حيث انسحبوا إلى الجنوب الشرقي الجزائري ثم التجؤا إلى تونس، كما ظهر محي الدين بن الأمير عبد القادر بالجهة الشرقية من تونس في شهر أكتوبر ١٨٧٠م، ليُستقبل استقبالاً حافلاً مع تكريمه يوم ١٨ نوفمبر ١٨٧٠م من قبل الباي التونسي، فاغتنم محي الدين هذه الفرصة ووجه مائتي رسالة إلى زعماء المقاومة الشعبية في الجزائر يدعوهم فيها إلى تنظيم الصفوف والاستعداد لمحاربة العدو عند قدومه إليهم من تونس.[٥] ويذكر يحي بوعزيز أن اكبر دعم شعبي تونسي للمقاومين الجزائريين بتونس، صبايحية زمالات الحدود الشرقية والكبلوتي والمقرانين وبن ناصر بن شهرة عام ١٨٧١م، الذين وزعوا في عدة جهات من تونس خاصةً بعروش دريد، وقدمت لهم إسعافات مساعدات مادية كالأغذية والخيام.[٦]

وبخصوص التواصل الاجتماعي، فقد شكلت الهجرة الجزائرية إلى تونس عمق أواصر الأخوة والصداقة وحسن الجوار، فقد دفعت هذه الهجرة إلى مد جسور العلاقات الاجتماعية بين الشعبين، وذلك مقارنة مع الجاليات العربية الأخرى المقيمة، حيث قدر الوزير الأول خير الدين باشا عدد الجالية الجزائرية عام ١٨٧٦م بحوالي ١٥٠٠٠ جزائري، بينما تقديرات القنصل الفرنسي روسطون (Rouston) حوالي ١٦٦٠٠ مهاجر، حسب الرسالة التي أرسلها إلى المقيم العام في الجزائر بتاريخ ١٤ أوت ١٨٧٦م[٧]. وبخصوص هجرة سكان الجنب الشرقي الجزائري نجد أن سكان ورقلة ووادي سوف وتقرت كانوا يهاجرون في مجموعات يتراوح عددها بين ١٠ و١٢ فردا، بينما سكان ميزاب كانوا يهاجرون في مجموعات قد تصل إلى خمسين فردًا أحيانًا.[٨]

ومن المهن التي اشتغلوها، عمال في بيوت الأغنياء، وعمال في الحمامات، والمناجم، والمطاعم، حراس، ونوادل في المقاهي، وأعمال الشحن والتفريغ للسلع خاصةً في الموانئ، وكان استقرارهم وتمركزهم بتونس العاصمة وبالتحديد في سوق العطارين، وسوق الكبابجية، رأس الدرب، رحبة الغنم، شارع الزاوية البكرية والعلوية،[٩] كما تجدر الإشارة إلى أن الوزارة الكبرى كانت تعين الشيوخ على كل جالية في تونس وفقًا لمراسيم تنظيمية، ففي ٢٦ جويلية ١٩١٩م صدر مرسوم بتولية ستة مشايخ جزائريين على رعاياهم منهم: جلول بن الحاج محمد بن رمضان، شيخ الورقليين، أحمد بن محمد بن صالح، شيخ التواتيين، الحاج علي بن عمر بن باكير، شيخ الميزابيين ،علي بن سلطان بن بلقاسم، شيخ السوافة.[١٠]

أما التواصل الاقتصادي، فقد شكلت منطقة الجنوب الشرقي الجزائري بموقعها الجغرافي المُتميز، وبتبادلاتها التجارية؛ حلقة متينة في ربط وتعزيز حركية التواصل الاقتصادي مع تونس، ولم تكن تعرف الحدود السياسية الفاصلة بينهما رغم آليات العزل

والمقاطعة والممناعة التي فرضها الإستعمار الفرنسي على سكان الحدود الجزائرية-التونسية، إذ أن التنقل بين المنطقتين كان يتم بصورة عفوية. وقد ساهم التبادل التجاري بين المنطقتين في قيام علاقات تجارية واقتصادية مميزة، أغنت كثيرًا محدودية المصادر الاقتصادية للمنطقة الجنوب الشرقي وخصوصًا منطقة وادي سوف، حيث كانت تونس باستمرار متنفسًا حقيقيًا لاقتصاد سوف، كما أنها استفادت مقارنة بليبيا بالنسبة لوادي سوف بامتياز القرب الجغرافي وتشابه النظام السياسي في كلا البلدين بحكم سيطرة فرنسا على كلا البلدين سواء كان ذلك على شكل حماية أو استعمار، كما أنها عوّضت على المنطقة انهيار علاقتها التجارية مع غدامس والأقاليم الطرابلسية خاصةً في فترة الاحتلال الإيطالي بعد أن كانت في السابق تمثل الجزء الأكبر من تجارة سوف مع مناطق الجنوب، وكانت منطقة تبادل وتجارة هامة.[١١] بالإضافة إلى ذلك؛ فقد ساهم الجالية الجزائرية في تونس بدفع الضرائب التونسية ومنها ضريبة المجبى، التي كان يدفعها الجزائريون كغيرهم من المواطنين التونسيين والتي قدرت بـ ٦٠ فرنكًا في النصف الثاني من القرن العشرين وتعرف بضريبة المساهمة وهي إجبارية على الأشخاص البالغ أعمارهم ما بين الثمانية عشر والستين

غير أن الاحتلال الفرنسي للجزائر والتوسع والتغلغل الاستعماري نحو عمق الصحراء الجزائرية حاول تمزيق هذه العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، لأنها باتت تشكل تهديدًا وخطرًا أمام التوسع الاستعماري في شمال ووسط إفريقيا، لكون أنه من بين أهداف السلطة الاستعمارية آنذاك هو ربط المستعمرات الفرنسية في إفريقيا ببعضها البعض، وتسهيل عملية تنقل الجيش الفرنسي، والسيطرة على الطرق التجارية الصحراوية، هذا بالإضافة إلى السبب الرئيس في قطع هذه العلاقات هو إضعاف روح المقاومة الجزائرية واحتواء زعمائها، وذلك بحصار تونس عسكريًا واقتصاديًا من ناحية الجنوب الشرقي الجزائري بحكم التبادلات التجارية والعلاقات الاجتماعية بين منطقتي الجريد التونسي ووادي سوف تمهيدًا لفرض الحماية عليها.

وعلى الرغم من احتلال تونس وفرض الحماية عليها سنة ١٨٨١م، إلا أن أواصر الأخوة والتضامن بين الشعبين بقيت مستمرة من خلال التنسيق بين حركات المقاومة الوطنية منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، ويتجلى هذا بوضوح من خلال دعم شيخ الطريقة الرحمانية بنفطة الشيخ مصطفى بن محمد بن عزوز لثورة بن غداهم سنة ١٨٦٤م، ومع بداية القرن العشرين الميلادي تضامنت وتعاونت الحركات السياسية بمختلف تشكيلاتها بين البلدين وحاولت أن تنسق مقاومتها السياسية ضد الاستعمار الفرنسي، وذلك مثلما حدث سنة ١٩١٩م أثناء عقد مؤتمر الصلح، حيث تشكلت لجنة مشتركة (جزائرية – تونسية) للمطالبة باستقلال البلدين، وفي إطار التحضير للثورة المسلحة حرصت حركة الانتصار للحريات الديمقراطية على تنسيق العمل العسكري ميدانيا بين البلدين، وأرسلت الأمين دباغين إلى تونس للتباحث مع المناضلين التونسيين في أمر تشكيل منظمة سرية في تونس تنسق عملها مع المنظمة السرية الجزائرية، بعد اندلاع الثورة الجزائرية سنة ١٩٥٤م، حيث تلاحمت دماء أبناء الشعبين جنبًا إلى جنب خلال مرحلة الكفاح التحرري، حيث أبدى التونسيين تضامنًا عريضًا مع ثورة الجزائر وقدموا لها أشكالاً مختلفة من الدعم والمؤازرة.

ثانيًا: انعكاسات السياسة الاستعمارية على المنطقتين

١/٢- اقتصاديًا:

- **ترسيم الحدود وتقييد حركة التواصل:** نتيجة لعفوية حركية تنقل الأشخاص بين المنطقتين، والذي بات يشكل هاجسًا أمنيًا واقتصاديًا على تواجد الفرنسيين بهذه المناطق، سارعت السلطة الاستعمارية منذ ١٨٤٣م إلى وضع خارطة جغرافية للصحراء الجزائرية للفصل بينها وبين الدول المجاورة، إذ نشر الرائد دوماس (Daumas) أول خارطة للصحراء الجزائرية بإشراف الجنرال بيجو، حيث عينت فيها الحصون والأبراج العسكرية المشرفة على التل والصحراء، وحددت حدوها الجنوبية في خط منكسر يمر عبر نفطة، وادي سوف، ورقلة، عين صالح،[١٣] وفي عهد المارشال راندون (Randon) الذي وصف عفوية التنقل بين الاعراش والقبائل الحدودية بحالة الانصهار التام، معتبرًا أن الخط الحدودي بين الجزائر وتونس والذي ساهم في انجازه بين ١٨٤٣ و١٨٤٥م لم يكن في الواقع سوى حدود وهمية لاحقيقية، لكون أن كل الجهات مفتوحة، والأشخاص المرتحلون يستقرون في أي منطقة دون مرعاة للحدود.[١٤] وبعد احتلال تونس سنة ١٨٨١م، ونتيجة للهجرة والتجارة غير القانونية وخاصةً تجارة البارود، وتشارك الجزائريين والتونسيين في مقاومة الفرنسيين، أصدرت السلطة الاستعمارية بصفة نهائية مرسوم في ٢٤ جويلية ١٨٩٠م ينص على ترسيم التخوم الجزائرية- التونسية كما يلي: الجهة الشمالية الشرقية شملت القالة، الطارف، سوق أهراس، أما الجهة الجنوبية الشرقية شملت تقرت ووادي سوف.

ولتقييد حركية التنقل والتواصل بين المنطقتين ألزمت السلطة الاستعمارية الأهالي على طلب تراخيص التنقل من اجل السفر أو العمل أو التجارة، وهي سياسة طبقتها فرنسا في كافة مستعمراتها، وكان الهدف منها، هو الحد من ظاهرة الهجرة الغير قانونية، وتضييق الخناق على المقاومين المعارضين للفرنسيين، ولتشديد الرقابة على المسافرين وضبط توجهاتهم،وكل من لا يملك رخصة التنقل فهو مخالف للقانون ،وبالتالي وجبت معاقبته من طرف العدالة الفرنسية بالسجن أو بدفع غرامة مالية،ولأنه بدون هذه الرخصة لا يسمح لهم بممارسة تجارتهم و أعمالهم مثلاً في المناطق الخاضعة لفرنسا.وتجدر الإشارة إلى أن

السلطة الاستعمارية كانت قد خولت بعض القياد صلاحية إعطاء (رخصة) التنقل والسفر من اجل فرض سلطتهم على الأهالي.[١٥]

- تقنين الحركة التجارية: إن الاهتمامات التجارية للسلطة الاستعمارية في الصحراء الجزائرية كانت حاضرة منذ بداية توسعاتهم نحو الجنوب الجزائري إذ جاء: (إن الاهتمام الأساسي لـ راندون (Randon) أن البحث عن سوق للعلاقات التجارية مع السودان حسب رأيه، والوصول إلى تبادل تجاري مع القوافل الرحل، التي تتبادل معها المنتوجات الصناعية وتعطيها الآلات)[١٦]، لذلك فإن التغيرات التي أحدثتها السلطة الاستعمارية بخصوص تشديد المراقبة والتفتيش وإنشاء أبراج عسكرية والتعقيدات الجمركية، ومنع السفر إلا برخصة، ومراقبة الأنشطة التجارية، خلف أثر سلبيًا على حركية التواصل الاقتصادي بين المنطقتين، إذ ارتفعت الأسعار نتيجة نقص المواد الغذائية، وفرضت ضرائب على السلع المتبادلة بين المنطقتين، الأمر الذي نتج عنه انتعاش تجارة التهريب كحل لانقاد الأسواق المحلية من لهيب الأسعار.

ويبدو أن سر السيطرة الاستعمارية على حركية التبادل التجاري، هو لسد المنافذ أمام تطور المقاومة الشعبية بالتخوم الجزائرية -التونسية، وفرض حصار على أسواق السلاح (البنادق، والبارود، والسروج، وألجمة الأحصنة والبغال والجمال) ضد بوشوشة وأنصاره التي كان مصدرها مالطة، تونس بواسطة تجار اليهود المالطيين والإيطاليين في موانئ صفاقس وسوسة، ونابل وغيرها، والتي كانت تجد طريقها إلى الجزائر عبر نفطة ثم وادي سوف، تقرت ثم إلى بقية مناطق الجنوب الشرقي الجزائري.[١٧] زيادة على تقيد حركية التبادل التجاري عملت السلطة الاستعمارية على مصادرة الأراضي الفلاحية بالنسبة لبعض القبائل الحدودية والتي شاركت في مقاومة للاحتلال الفرنسي لتونس، في إطار العقوبات الجماعية التي تضمنها قانون الأهالي سنة ١٨٧١م، كما تم إجبار الأشخاص الممارسين للنشاط الفلاحي الحصول على رخصة القيام بنشاط فلاحي من السلطات الاستعمارية وهذا بعدما يتم دفع ضريبتي الحكر الخاصة بالحرث، والعزيب الخاصة بالرعي.[١٨]

٢/٢- عسكريًا:

- ملاحقة المقاومين الجزائريين على الأراضي التونسية: تذكر بعض الوثائق التاريخية بأن تونس قبل وأثناء احتلالها كانت من أهم الملاجئ الآمنة للمقاومين الجزائريين، وأهم قاعدة خلفية للتموين والدعم اللوجيستيكين، حيث استغل اللاجئون والمنفيون الجزائريون تواجدهم بتونس، وأعادوا تنظيم الصفوف وجمع الأتباع والأنصار للقيام بهجمات على الفرنسيين داخل تونس وعلى بعض المواقع الحدودية الجزائرية القريبة من تونس، الأمر الذي اقلق السلطات الفرنسية ودفع بهم إلى مراسلة البايات التونسيين، فقد جاء في شكوى من القنصل الفرنسي لابلاس (Laplace) إلى المشير أحمد باي مفادها أن مجموعة من الجزائريين كانت تتعقبهم السلطات الفرنسية دخلوا إلى تونس من منطقة كاف الطبول ومن بينهم "صالح بن دالي" طالبًا منه تعقب هذه المجموعة وإلقاء القبض عليهم، مع تذكير قايد الفراشيش بعدم استقبال وإيواء الفارين الجزائريين وطردهم من منطقته إن حلوا بها.[١٩]

ومن بين الشخصيات الجزائرية التي أقلقت السلطة الاستعمارية نجد الحسن بن عزوز خليفة الأمير عبد القادر بالزيبان والصحراء الشرقية، فقد جاء في رسالة أرسلها إلى الباي حمودة باشا ناصحًا له فيها قائلاً: "...كن فطنًا لبيبًا عاقلاً، وانظر عاقبة الأمور من جانب الكفرة، ولا تظن وِدَّهم من جانب الحب،بل من جانب المكر والخديعة لا غير وما شغلهم عنكم إلا نحن ولولا نحن لرجعوا إليكم، وها نحن مشغولون الا بهم وأنت منا والينا والحب بيننا ولا حق ينفك أبدًا والسلام معاذ عليكم".[٢٠]

هذا بالإضافة إلى شخصية الشريف محمد بن عبدالله بتونس، الذي متَّن علاقاته بكثير من اللاجئين الجزائريين، وأخذ رفقة ناصر بن شهرة يشنون الغارات على الأعوان الفرنسيين داخل الحدود الجزائرية، وكثيرًا ما كان يشاركه في هذا العمل مقاومون لاجئون آخرون خاصة محمد بوعلاق اليعقوبي، فتضايقت السلطات الفرنسية والتونسية من هذه الهجومات، وأمرت بطردهم واستخدام القوة ضدهم، وهذا ما تؤكده مجموعة من الرسائل أهمها: رسالة من المشير أحمد باشا باي تونس إلى قنصل فرنسا بتونس، والمؤرخة في ١٠ رمضان ١٢٧٠هـ الموافق لـ جوان/ يونيو ١٨٥٤م، والتي جاء فيها:

(الحمد لله وحده من عبد الله سبحانه المتوكل عليه المفوض جميع الأمور إليه المشير أحمد باشا صاحب المملكة التونسية إلى معاهدنا ذي الافتخار الأكبر الكولير بكلار المكلف بأمور الدولة الفرنساوية والقنصل جنرال بحاضرتنا تونس أما بعد: فإن رجلاً من تلمسان اسمه الشريف محمد بن عبد الله قدم إلى أطراف بلادنا من ناحية الجريد،وأمرنا بطرده وإبعاده، وعدم قبوله ثم نخرب بمن معه، وأغار على الفطارية من رعيتنا ما بين نفطة وتوزر، وأخذ لهم قدر ثلاثين بعيرًا ووقعت بينهم القتلى والجرحى وهو من القائمين على الحكم بالجزائر، فأردنا أن نغصبه على البعد من عمالتنا تحفظًا من فتنته ونخلص منه ما أخذه ، وإن لم يبعد إذن بحربه، فأعلمناكم ليكون ذلك على ذكركم، فإننا لا نأوي الظالمين في عمالتنا، ولو يصدر منهم ضرر في عمالتنا أحرى مع الضرر. ودمتم في أمن الله تعالى وكتب في رمضان المعظم من سنة ١٢٧٠هـ).[٢١]

وجاء في رسالة أخرى من المشير أحمد باشا باي تونس إلى القنصل العام الفرنسي بتونس، والمؤرخة في ٢١ جمادى الثانية ١٢٧٠هـ الموافق لـ مارس ١٨٥٤م، ما يلي: (الحمد لله وحده. من

عبد الله سبحانه المتوكل عليه المفوض جميع الأمور إليه المشير أحمد باشا صاحب المملكة التونسية إلى معاهدنا ذي الافتخار الأكبر الكولير بكلار المكلف بأمور الدولة الفرنساوية والقنصل جنرال بحاضرتنا تونس أما بعد: فإنه بلغنا كتابكم في شان الرجل الشريف الذي قدم من الغرب، والجواب إننا سمعنا به قبل أن تخبرنا وفي الحين كاتبنا أمير اللواء ابننا أحمد زروق بطرده وعدم قبوله في عمالتنا، هو ومن معه وأذناه ببعث له ليرحل من غرب عمالتنا، كما هو شأن المحبة والموافقة بين الدولتين، وأما محمد بن القاضي الذي بنفزاوة فإننا نخاطب عامل الجريد بأن يخاطبه بالرحيل إلى دواخل العمالة، والبعد عن شبه الفساد، وإلا يخرج من عمالتنا ودمت في أمن الله، وكتبت في٢١ جمادى الثانية ١٢٧٠هـ).[٢٢]

زيادةً على شخصية ناصر بن شهرة الذي كان يتنقل بين واحات ورقلة ووادي ريغ ووادي سوف والجريد التونسي، وقد متن هو الآخر صلاته باللاجئين الجزائريين وبعض التونسيين الذين نسق معهم المقاومة ضد الفرنسيين أبرزهم محمد بن بو علاق اليعقوبي زعيم أولاد يعقوب، الأمر الذي اقلق السلطة الاستعمارية والتي راسلت الباي التونسي في رسالتين، الأولى كانت من قنصل فرنسا بتونس إلى المشير الصادقي باي تونس، والمؤرخة في ٣١ أكتوبر١٨٦٠م، يعطي الإذن فيها بإلقاء القبض على ناصر بن شهرة الذي قام بغارات على دواوير أولاد رشيش[٢٣]. والثانية كانت من الحاكم العام بالجزائر إلى قنصل فرنسا بتونس، والمؤرخة في ٢٨ أكتوبر ١٨٦٠م، جاء فيها: (نعرف جنابكم بأنه بلغ لي مكتوب بالتلغراف من الجنرال حاكم عمالة قسنطينة هذا نصه: بلغني أن جماعة ناصر بن شهرة بعد أن غزا السوابد واتجهوا لجهة الشرق ونزلوا على دواوير أولاد رشيش النازلين في وازرن وغزوهم. وبلغني هذا الخبر إجمالاً ولم يبلغني تفصيل عن ذلك).[٢٤] وإزاء اشتداد مشاركة الجزائريين في المقاومة المسلحة بتونس وكثرة اقتنائهم للأسلحة داخل الجزائر تخوف الفرنسيون كثيرًا وتوقعوا نشوب معارك واضطرابات وانتفاضات فحشدوا ثلاثة عشر ألف جندي في مدينة تبسة قرب الحدود خلال شهر جويلية ووضعوا مشروعا لاكتساح كافة مناطق عمالة قسنطينة إلى منطقة القيروان بتونس للتتبع الثوار والمقاومين والقضاء على نشاطهم.[٢٥]

- إنشاء الأبراج والثكنات العسكرية للتفتيش والمراقبة:

من جهة الجنوب الشرقي الجزائري وبعدما تم احتلال كلا من منطقة الزيبان وورقلة ووادي ريغ ووادي سوف، ونظرًا لعدم استقرار الأمن بهذه المناطق نتيجة للمقاومات الشعبية، وخصوصا بعد مقتل الرحالة فلاترس (Flatters) في ١٦ فيفري ١٨٨١م من طرف مقاومي التوارق، سارعت السلطة الاستعمارية إلى إنشاء أبراج عسكرية في بعض المناطق الاستراتيجية الرئيسة، والتي تتحكم في مرور القوافل التجارية من جهة، وتضمن الأمن للمعمرين الفرنسيين والأوروبيين، وتسمح لهم بالتصدي لمقاومة سكان الصحراء من جهة ثانية، ومنه بسط نفوذه على الشريط الواقع ما وراء الأطلس الصحراوي، ومن أبرز الأبراج العسكرية على الحدود الجنوبية الجزائرية التونسية، وخصوصًا ما بين وادي سوف والجريد التونسي نجد: برج الدبيلة، برج الحاج قدور، برج العدل، برج سوشة اليهودي، أما بخصوص ما بين تقرت ووادي سوف نجد: برج مقيلتة، برج فرجان، برج مويت القايد، ونجد ما بين بسكرة ووادي سوف برج الشقة، برج مقيقرة، برج الحمراية، برج المنادي، برج بوشحمة، برج المجير.[٢٦] ومن ناحية نمط بنائها فهي بناءات صغيرة، وتغطيها قبابها ميزة خاصة، وتحتوي على مسكن للحارس المكلف بحراسة الآبار القريبة، ويفتح هذا البرج للمسافرين وخصوصًا الضباط العسكريين والموظفين ويخضع كل ذلك لنظام محدد.[٢٧]

أما من جهة الجريد التونسي، فتذكر الوثائق التاريخية أن الحكومة التونسية كانت قد أنشأت مجموعة من الأبراج العسكرية على الشريط الحدودي بين الجزائر وتونس، وهذا بسبب الضغوطات والتهديدات الفرنسية على الحكومة التونسية بملاحقة الجزائريين الفارين، خاصةً لما ظهر دعاة جزائريون وتونسيون في واحات وادي سوف ووادي ريغ يحثون الناس على حمل السلاح لمقاومة جيش الاحتلال الفرنسي، وعلى تقديم العون للمقاومين التونسيين بتونس، فاضطرت السلطات الفرنسية إلى فرض مراقبة وحراسة شديدة على منطقة الحدود من القالة وعنابة شمالاً إلى ما وراء تبسة جنوبًا وبث عملائها في الواحات الجنوبية ليتصدوا لهؤلاء الدعاة النشطين[٢٨]، كما دفعت عملائها وجواسيسها لإثارة المشاكل مع التونسيين لتجد الفرصة للتدخل، وضغطت على الحكومة التونسية حتى أرغمتها على تنظيم لقاء معها في ذراع خرون للفصل في تلك المشاكل التي أثارها عملاؤها،[٢٩] وتلبية لضغوطات السلطة الفرنسية قامت الحكومة التونسية سنة ١٨٤٧م في عهد المشير أحمد بوضع أربعة قطع مدفعية بمدينة الكاف لتشديد الرقابة العسكرية، وفي عهد الباي محمد الصادق (١٨٥٩- ١٨٨٢م) تم إصلاح بناء بعض الأبراج والثكنات العسكرية.[٣٠]

غير أن فشل الحكومة التونسية في إيجاد حل أمني على المناطق الحدودية وخصوصًا في ترويض القبائل الحدودية المعارضة للبايات التونسيين، والذين شاركوا إلى جانب الجزائريين في مقاومة الاحتلال الفرنسي دفع بالسلطة الاستعمارية إلى احتلال تونس سنة ١٨٨١م، وإخضاع هذه الأبراج العسكرية لسلطة الفرنسيين بمقتضى معاهدة الحماية، وأنشأت فرقًا خاصة على طول المناطق الحدودية لتشديد المراقبة على امتداد ١٢٠كلم، وأهم هذه الأبراج العسكرية بمنطقة الجريد التونسي نجد: برج قرباطة، برج القويفلة، برج

العسة، برج ناظور السبع، برج الحميمة، برج حيدرة، برج النفيضة.[٣١]

٣/٢- اجتماعيًا:

- تقييد حركة الهجرة: لقد تعددت الأسباب التي أدت إلى بروز ظاهرة الهجرة الجزائرية خلال الفترة الاستعمارية، حتى وان تشابهت في معظمها مثل الهروب من البطش والقمع والتنكيل، وأيضًا الهروب من القوانين الجائرة كقانون الأهالي (الانديجينا)، وقانون الخدمة العسكرية الإجبارية، هذا بالإضافة إلى الشعور بالمهانة والذّلة التي أصبح يعيشها السكان الجزائريين المسلمين جراء الفقر والحاجة، التي أضحت هاجسًا يؤرق كل جزائري، زيادة على ذلك واقع الممارسة الاضطهادية ضد الأهالي انطلاقًا من سلب الأراضي ومنحها إلى المعمرين نتيجة الضرائب التي أثقلت كاهلهم، أو سياسة الإعانة بالقروض المستعملة بطريقة ربوية مما يجعل الأهالي يفقدون ممتلكاتهم، بالإضافة إلى الأزمات الاقتصادية والكوارث الطبيعية،[٣٢] إلا أن لكل منطقة خصوصيتها، فدوافع الهجرة السكانية في مناطق الجنوب الشرقي الجزائري يمكن حصرها فيما يلي:

- القرب الجغرافي للجنوب الشرقي لجزائري ومحاذاته للحدود التونسية من خلال منطقة الجريد والحدود الليبية عن طريق غدامس، وسهولة التنقل، وضعف المراقبة الحدودية نتيجة الطابع الصحراوي الصعب وعدم اكتراث السلطات التونسية لهذه الهجرات.
- السياسة الاقتصادية التي فرضتها الإدارة الاستعمارية على أهالي المنطقة أثرت عليهم اجتماعيًا، مما دفع بالكثير من السوافة والورقليين والتقرتيين والميزابيين والبساكرة على التفكير في الهجرة نحو تونس، وخصوصًا منذ منتصف القرن التاسع عشر، فمثلاً أغلبية المهاجرين من سكان السوافة هم من المالكين للحيوانات دون النخيل، وضعف هذه الحيوانات على توفير بعض متطلبات الحياة خاصةً الماعز الذي هو أقل قدرة على إنتاج الحليب[٣٣]، وفيما يخص الهجرة التي شهدها سكان ورقلة أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، فقد كانت بسبب عدة أمراض مزمنة منها: وباء حمى المستنقعات، ووباء الجدري، ووباء التيفس[٣٤]، وفيما يخص سكان وادي ميزاب فإن الظروف المناخية الصعبة في الجنوب والتي تتميز بالجفاف وانتشار عدوى الأمراض زادت من بؤس السكان، وكان لابد من البحث عن مجالاً آخر من أجل تأمين لقمة العيش، فهاجروا إلي تونس، التي لم تكن بدافع الفرار من دار الكفر إلى دار الإسلام وإنما للبحث عن شغل في بيئة جديدة، خاصةً وأن الشروط الجبائية في تونس كانت مقبولة بالنسبة للوافدين الجدد من المهاجرين الميزابيين.[٣٥]
- تسلط الحكام المحليين ونوابهم من القياد الذين يخضعون لسلطتهم مباشرة، الذين اضطهدوا الأهالي وطبقوا عليهم الإجراءات التعسفية من خلال فرض الغرامات المباشرة لأسباب تافهة خاصةً فيما يتعلق بالحصول على رخص التنقل، ولقد سُجلت حالتين بورقلة سنة ١٩١٤م، وقد زادت هذه الغرامات القياد والحكام المحليين ثراءً.[٣٦]
- السياسة الاستعمارية المعادية للتعليم العربي الإسلامي وغياب المراكز الثقافية والعلمية، مع وجود حرية نسبية في طلب العلم بتونس دفعت بالكثير من الطلبة ومثقفي المنطقة إلى الهجرة رغبة في تحصيل العلم، فيذكر الأستاذ محمد علي دبوزفي كتابه "نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة": أن سفر الطلاب الجزائريين إلى تونس لطلب العلم في الجامعة الزيتونية وفي مدارسها ابتدأ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث هاجر إليها أفراد قليلون منهم الشيخ الحاج سعيد بن يوسف اليزقني الذي رجع من تونس حوالي ١٨٧٠م فتولى التدريس في ميزاب، ثم ابتدأت الهجرة إلى تونس لطلب العلم تكثر في العقد الأول من القرن العشرين لتتدفق الهجرات والبعثات السنوية بعد الحرب العالمية الأولى، منها التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومنها ما هو تابع لحزب الشعب الجزائري (حركة انتصار الحريات الديمقراطية)، ومنها ما هو تابع لشيوخ الزوايا والطرق الصوفية، ومنها ما هو تابع لبعض الجمعيات الثقافية والمتخرجين والمنتسبين لجامع الزيتونة، حيث صارت تونس هي مقصد كل من يريد الثقافة العربية الواسعة.[٣٧]

وبخصوص طلبة منطقة وادي ريغ فحسب الروايات الشفوية، فإن أول بعثة طلابية منظمة إلى جامع الزيتونية كانت في بداية الأربعينات حيث أشرفت عليها جمعية الفلاح التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقد تضمنت هذه البعثة الطلابية الأسماء الآتية: أحمد جاري، علي كافي، محمد كافي، محمد بورقعة، المولدي بن أحميدة، عبد الحميد عقال.[٣٨] أما الطلبة السوافة، فإن سياسة التجهيل التي اعتمدتها السلطات الاستعمارية ساهمت بشكل كبير في انتقال مجموعة لا بأس بها من السوافة نحو الأراضي التونسية من خلال هجرات علمية، وهي هجرات جديدة اقتصرت مدة إقامتها على سنوات طلب العلم والتحصيل والانتفاع من المعاهد التونسية.[٣٩] وبخصوص الطلبة الميزابيين فأول دفعة طلابية منظمة سافرت إلي تونس كانت سنة ١٩١٢ من أجل التعليم في المدارس القرآنية في الزيتونة والخلدونية[٤٠]، وفي هذا الصدد يقول عبد الله ركيبي:[٤١] «إنّ دافعنا إلى الهجرة هو دافع جيل كامل بل أجيالاً قبلنا تهدف إلى أن تتثقف ثقافة عربية إسلامية أصلية، خاصةً وأن التعليم

المتوسط والثانوي لم يكن بالعربية ولكنه كان بالفرنسية، ونحن أبناء الشعب من يعيش منا في الريف أو القرية لا فرصة له ليواصل تعليمه بعد الابتدائي فكانت (الزيتونة) ملجأ لمن حُرم من ثقافته وتراثه القومي، ولم يكن للجغرافية دخل في هذه الهجرة إلى تونس فهناك التقينا بأمثالنا من شتى أنحاء الوطن».

جدول يبن عدد طلبة الجنوب الشرقي الجزائري في جامع الزيتونة(١٩٠١-١٩٥٣)[٤٢]

المنطقة	وادي سوف	تقرت	تماسين	ورقلة	بسكرة	غرداية	المجموع
العدد	١٥٧	٦٨	٥	٢٢	٧٨	٣	٣٣٣

- العامل الديني الصوفي، حيث اِتخذ العديد من مشايخ الطرق الصوفية بالجنوب الشرقي الجزائري من الجريد التونسي منطلقًا في نضالهم ضد الاستعمار الفرنسي، مثل الطريقة القادرية، والطريقة الرحمانية العزوزية.

إذن هذه هي أهم الأسباب التي كانت وراء هجرة سكان الجنوب الشرقي الجزائري إلى تونس، وعلى الرغم من الانعكاسات السلبية للهجرة الجزائرية على أرض الوطن إلا أنها في المقابل كانت ايجابية في عدة جوانب أثرت على الإدارة الاستعمارية في كلا المنطقتين، لذلك تنبهت السلطات الاستعمارية لحركة الهجرة، فأصدرت جملة من القوانين والقرارات لتقييدها، منها القرار الصادر بتاريخ ٧ فيفري١٨٨٩م، والذي نص على ما يلي: "كلما ألقي القبض على جزائريين في وضع غير قانوني يجب إيقافهم وتوجيههم إلى الحدود وعلى الأعوان المرافقين لهم أن يقدموا للسلطات الجزائرية كل المعلومات حول الموقوفين فيما يخص وضعهم المدني وسبب الترحيل ومكانة إقامتهم بالجزائر".[٤٣]

وفي إطار وضع حد لنشاط الطرق الصوفية وتأثيراتها على الضفتين، سعت السلطة الاستعمارية إلى إضعاف الطرق الصوفية المنتشرة عبر منطقة الجريد التونسي وعلى الخصوص الطريقة الرحمانية العزوزية والطريقة القادرية، وذلك من خلال تدخلها في تسمية مشايخ الطرق بفرض إجراءات إدارية يجب توفرها في المترشح لتسيير مشيخة الطريقة، حتى تكون لها الحرية في اختيار مرشحين موالين لها،[٤٤] كما وضعت حدًا لتنقلات المشايخ من خلال سّن قوانين تحدد وسائل التنقل مثل المنشور المؤرخ في ٩ جانفي١٩١٣م بتونس الذي وضّح لمشايخ الزوايا ونوابهم الأعمال القانونية التي يلزمهم إتمامها قبل الانتقال من الدوائر المقيمين بها، وسعت إلى التنفذ داخل الطريقة من خلال استخباراتها كما هو الشأن بالنسبة للضابط " ديبورتر" والذي عمل لسنوات في صحراء الجزائر وتونس، وبخاصةً في بسكرة ووادي سوف وغرداية وتوزر، وتعلّم اللغة العربية في الوادي وتوزر، وشارك في حملات عسكرية منها احتلال تونس، وربط علاقات صداقة مع الشيخ محمد الكبير بن إبراهيم شيخ زاوية نفطة القادرية، وحصل منه على دبلوم مقدم كان يستخدمه عند الحاجة، حتى كان يعتبره الناس مسلم قادري.[٤٥]

وبخصوص تقييد الهجرة الطلابية إلى المؤسسات التعليمية التونسية، فيذكر الدكتور خير الدين شترة: «أن الطلبة الجزائريين الذين يرغبون في إتمام دراستهم بتونس يكونون عرضة لإجراءات معينة من قبل سلطات الأشراف عن طريق المصالح الإدارية والمهنية، ولم تكتف السلطات الفرنسية بهذه الإجراءات، بل طلبت من القيَّاد وأعوانهم القيام بتحقيق سري يتضمن معلومات حول كل طالب يرغب في الحصول على ترخيص السفر للثبت من سيرته وانتمائه السياسي وولائه لفرنسا ومد إدارة الأمن بتقرير في الموضوع».[٤٦] ولعل الغرض من تقييد الهجرة الطلابية إلى تونس هو أن البعثات الطلابية الجزائرية إلى تونس باتت تشكل خطرًا وتهديدًا على أمن واستقرار الفرنسيين، فبناءً على مجموعة من التقارير الفرنسية يتضح أن الطلاب الجزائريين الذي تخرجوا من المؤسسات التعليمية التونسية لعبوا دورًا كبيرًا إلى جانب إخوانهم التونسيين في المقاومة السياسية والفكرية ضد الإدارة الاستعمارية، فقد تخرّج من أقاليم الجنوب الشرقي الجزائري عن طريق البعثات التعليمية المنظمة والموجهة إلى تونس خلال الفترة ١٩٠٠-١٩٥٦ حوالي٦٤٢ إطارًا تلقوا تعليمًا في المستوى الجامعي (المدارس الصادقية والخلدونية أو في الجامع الأعظم) وهو عدد يفوق ضِعف الجزائريين المتخرجين من الجامعة التي أنشأتها فرنسا في الجزائر.[٤٧]

فمثلاً بعض الورقليين المقيمين بتونس لعبوا دورًا فعالاً في الحركة السياسية والتعبئة الثورية في المنطقة، فحسب شهادة المجاهد حجاج عبد القادر الذي كان مقيمًا وعاملاً بتونس، إنه كان عضوًا نشطًا في التنظيم النقابي برئاسة فرحات حشاد[٤٨]، غير أن السلطة الاستعمارية ألقت عليه القبض رفقة بعض المناضلين التونسيين، واعتقلته لمدة يومين على ذمة التحقيق، ليصدر في حقه الطرد والنفي إلى بلده الجزائر عائدا إلى ورقلة سنة ١٩٥٤م، وآنذاك بدأ ينشط ضمن الخلايا المدنية الثورية التي بدأت تتشكل في المنطقة،[٤٩] هذا بالإضافة إلى أن الدكتور خيرالدين شترة، وبناء على تقرير حاكم الجزائر العام إلى المقيم العام تونس في نهاية ١٩٢٠م ذكر: «أن بعض الجزائريين كانوا ملتفين حول جمعية دينية تعمل على الدعاية لاستقلال القطرين التونسي والجزائري معًا، وهم كلهم ثقة بأن كل المستعمرات الفرنسية ستنال استقلالها عن طريق هذه الجمعية».[٥٠]

هذا بالإضافة إلى أن جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين الصحراويين[٥١] بتونس لعبت دورًا كبيرًا في تكوين أبناء الصحراء

تكوينًا سياسيًا وفكريًا، ومنهم: محمد الحفناوي بن الأخضر السوفي، عبد الله الزريبي البسكري، ثابت الأزهري، أحمد بن ثابت، وحميد بن حمودة الورقلي،[٥٢] محمد الأخضر السائحي المعروف ثوريًا باسم "الكبتان سي المختار".[٥٣] وقد شكل طلبة وادي سوف في جامع الزيتونة تنظيمات طلابية مثل جمعية "الشباب السوفي الزيتوني" التي أنشئت في ١٢ ماي ١٩٣٧، وكانت تضم (١٢) عضوًا يرأسهم عبد الرحمان أحمد بن لخضر[٥٤]. علمًا أن طلبة قمار أنشأوا جمعية خاصة بهم في الزيتونة تدعى "جمعية الرابطة الثقافية القمارية"، هذا بالإضافة إلى مساهمتهم في تأسيس الرابطة العلمية سنة ١٩٢٤م، وهذا سعيًا منهم «لإيجاد وسيلة فعالة للتضامن الفكري والقلمي بينهم، وخدمة الحركة العلميّة ببلادهم ونفع شعبهم والسعي في رفع مستواه العلمي والسياسي والاجتماعي».[٥٥]

وفي إطار نشاط الحركة الوطنية التونسية فقد ساهم سكان الجنوب الشرق الجزائري المقيمين بتونس في التغطية المالية للحزب الحر الدستوري، وذلك بجمع التبرعات، حيث تشير التقارير الفرنسية عن تلقي الحزب مساهمة مالية جزائرية تم تقديمها للثعالبي لا تقل عن ١٧٤٠٠٠ فرنك فرنسي، التي جلبها صالح بن يحي من الجزائر من طرف القواعد النضالية الخلفية المتمثلة في المناضلين الآتي أسماءهم: داوود فارس ميزابي من قالمة، محمد بن زكري من تبسة، عمر بن إبراهيم غير متعلم من برج بوعريريج، حجوط يوسف بن عدون شارع لير بالجزائر.[٥٦]

وفي السياق ذاته؛ يذكر الشيخ محمد علي دبوز نقلاً عن الشيخ إبراهيم الطفيش عن المساهمة الميزابية قائلاً: «كان الشيخ صالح بن يحي بن عيسى يمد الحزب الدستوري كلما احتاج إلى المال في آخر كل شهر، وكان التونسيون يثقون به ثقة كاملة، وهو الذي كان يجمع التبرعات منهم للحزب وأنفق أموالاً طائلة على الحزب، واشتغل عن تجارته لاستغراقه في جهاده السياسي»[٥٧]، وهو الرأي نفسه عند توفيق المدني الذي قال عنه: «.. هو الذي اظهر الحزب الدستوري في تونس بدعايته وحماسه ومساندته للثعالبي المادية والمعنوية...»،[٥٨] زيادة على ذلك فقد أشارت التقارير الأمنية الفرنسية إلى وجود متعاونين آخرين مع الحزب الدستوري، منهم: الحاج يوسف وعمر كمراسلين في تونس والطالب الزيتوني إبراهيم الطفيش وحتى قائد وقاضي بني يزقن اللذان قدما مبلغ مالي هام إلى رئيس اللجنة الوطنية عن طريق إبراهيم الطفيش.[٥٩]

هذا بالإضافة إلى وجود طريقة أخرى سرية استخدمها الميزابيون لتقديم مساعدات مالية للحزب الدستوري وهي استخدام إنجاز المشاريع الخيرية كغطاء لدفع الأموال، وهو كما أكده المقيم العام في الجزائر، في أحد الوثائق التي يكشف فيها تحركات بعض الجزائريين وجمعهم للمال بحجة بناء مسجد الميزابيين، من بينهم: باعلي صالح بن باعلي، إبراهيم الطفيش، محمد صالح بن يحي، بينما في الواقع كان عكس ذلك، فالمبالغ المالية المجموعة تم وضعها في خزينة الحزب الحر الدستوري، وقد كشفت الجهات الأمنية الفرنسية عن مبلغ ٢٣٠٠٠ فرنك فرنسي تم إيداعه في خزينة الحزب الحر الدستوري.[٦٠]

في خضم هذا الحماس الثوري الفياض والنظام الجبهوي المحكم بدأ هؤلاء الطلبة ببعث تنظيم كشفي في إطار جبهة التحرير الوطني وأشهر الأفواج الكشفية الجزائرية بتونس العاصمة انتشارًا وحركية هو فوج الجبل الأحمر الذي تشكّل أساسًا من طرف الطلبة "السوافة" بتونس والجالية الجزائرية المؤلفة من المهاجرين واللاجئين حيث كانت مدرسة الجيل من الجوالة التحقوا فيما بعد بصفوف جيش التحرير الوطني للدفاع عن الوطن،[٦١] وهذه المساهمات المالية والنشاطات السياسية كان لها الأثر الطيب في زيادة لحمة التواصل بين ساكنة الجنوب الشرقي الجزائري ومختلف الحواضر التونسية.

٤/٢- إعلاميًا:

-كبت وخنق أصوات الصحف والصحافيين: لقد حضي النشاط الصحفي في تونس باهتمام كبير من طرف الكتاب الجزائريين من اجل فضح السياسة الاستعمارية، وتعبئة الرأي العام الجزائري والتونسي لمحاربة الاستعمار الفرنسي، مادام الاستعمار الذي يجثم على تونس والجزائر هو استعمار واحد، وإن اختلف شكله بين الحماية والاستعمار المباشر، فإن مكمونه واحد، وقد استطاع الجزائريون أن ينشؤا ما بين ١٨٨٨ و١٩٢١ عدة جرائد في تونس أهمها: الحاضرة. سبيل الرشاد. إظهار الحق. السعادة العظمى. تحقيق الأمل. القسطاس .المنصف. التسامح. الإسلام. الاتحاد الإسلامي. المشير. صدى الساحل. الوزير. لسان الشعب. البرهان...وغيرها[٦٢]،ومن أهم الأقلام الصحفية الجزائرية أصيلي الجنوب الشرقي الجزائري في تونس نجد: من وادي سوف حمزة بوكوشة، وعبد القادر الياجوري، وعبد الرحمان اليعلاوي، وهالي الحفناوي، وأبو القاسم سعدالله، ومن وادي ريغ: عبد الرزاق قسوم، وبن السايح محمد اللقاني، والازهري ثابت، وعبد القادر الأخضر السائحي، ومحمد الأخضر السائحي، ومن بسكرة: محمد السعيد الزاهري، ومحمد الهادي السنوسي، والزاهري محمد خير الدين، ومحمد العيد آل خليفة، والبشير بن حسونة الخنقي، ومن وادي ميزاب الشيخ إبراهيم أبو اليقظان، والشيخ اطفيش امحمد يوسف، ومفدي زكرياء.

لقد استطاعت هذه الأقلام الجنوبية وكغيرها من الأقلام الجزائرية المقيمة في تونس أن تجاهر الاستعمار الفرنسي وبلهجة حادة بفضح سياسته الاستعمارية وأساليبه القمعية ضد الشعبين التونسي والجزائري، متجاهلين ما يحيط بهم من مخاطر، آملين من وراء هذا التحدي تحرر واستقلال تونس والجزائر من الاستعمار الفرنسي، فمثلاً جريدة "صدى الصحراء" البسكرية في عددها الخامس نقلت أخبار احتجاجات وتظاهرات

التونسيين للمطالبة بإزالة تمثال الكاردينال لافيجري ونقل أحكام فرنسا القاسية التي أنزلتها بالمتظاهرين التونسيين. كما نشرت جريدة النهضة التونسية مقالات لمحمد السعيد الزاهري، حيث حاول فيها تصوير ما يجري في الجزائر على مستوى القوانين والتشريعات والصراعات السياسية، كما اهتم أبي اليقضان خلال العشرينيات والثلاثينيات اهتمامًا شديدًا من خلال رسائله في جريدة المنير تحت عنوان "الرسائل الجزائرية" بمعالجة الواقع المحلي للجزائر وتوجيه النصائح إلى عموم الجزائريين. ويكفي أن نستدل بموقف صحفي في جريدة وادي ميزاب بعنوان "كيف يفهمون الدين" مدافعًا فيه عن المسلمين في تونس، وهو عبارة عن رد قوي على كاتبة فرنسية تدعى (مدام سيلاربي) سخرت من الإسلام والمسلمين.[٦٣]

غير أن السلطة الاستعمارية كعادتها التجأت إلى الوسائل القمعية لكبت وخنق أصوات الصحف والصحافيين، وذلك بمصادرة الصحف، ووضع العراقيل أمام عمليات التوزيع والرواج، ولعل أهم ما كان يقلق السلطة الاستعمارية في اتجاه هذه الصحافة هو تركيزها على نقد سلوك الإدارة نحو العنصر الأهلي ارتباطها بالجمهور، حيث أصبحت جزاء من تقاليده اليومية ومشاغله الدائمة،[٦٤] ويذكر الدكتور محمد القورصو بأن الصحف التونسية كانت هي الأكثر مصادرة من طرف السلطات الفرنسية بحكم كثرتها ورواجها وسهولة دخولها إلى الجزائر خاصة الزهرة والأسبوع والإرادة، والهلال. الإصلاح.. وغيرها، ومن الأمثلة على ذلك فبمجرد صدور العدد الأول من "جريدة الإصلاح" للشيخ الطيب العقبي منعت الإدارة الفرنسية بواسطة محافظها في تونس جميع المطابع التونسية من طبع الجرائد الجزائرية إلا بإذن خاص، وقد تدخّل وكيل الجريدة الشرعي في تونس لدى المحافظ شارحًا له الوضع بأن قرار منع طباعة جريدة "الإصلاح" في تونس مخالف للأعراف والقوانين.[٦٥] كما تحدثت التقارير الفرنسية عن كثرة عمليات الحجز ضد الجرائد التونسية في قسنطينة ولدى الأشخاص مثل محمد السعيد الزاهري (سنة ١٩٣٠ مثلاً).[٦٦]

خاتمة

بعد سعينا إلى الإجابة عن الإشكالية التي طرحناها في بداية البحث يمكن أن نستخلص بأن السياسة الاستعمارية التي طبقتها فرنسا على المنطقتين فهي بقدر ما كانت سلبيّة في العديد من الجوانب، إلا أنه في المقابل أوجدت تحدي وطني من كلا الشعبين للتصدي لهذه السياسة الاستعمارية وتحرير واستقلال البلدين من الاستعمار الفرنسي، ومن الأمثلة على ذلك نجد ما يلي:

التضييق على نشاط الزوايا والطرق الصوفية دفع بالبعض من شيوخها إلى التعامل مع الإدارة الاستعمارية والحكومة التونسية في كثير من الأحيان خدمة للمقاومة الشعبية من جهة، ولكسب ثقة السلطة الاستعمارية تجنبًا للمراقبة والمتابعة، وهروبًا من دفع الضرائب من جهة أخرى، وذلك مثلما فعل محمد الطيب بن إبراهيم شيخ الزاوية القادرية بورقلة، حيث طلب من السلطات الفرنسية إعفاء زاوية نفطة من الضرائب المفروضة على إنتاج النخيل باعتبارها كانت معفية قبل ١٨٨١م، هذا بالإضافة إلى دور الزاوية الرحمانية بنفطة، حيث كلف الوزير الأكبر مصطفى خزندار الشيخ مصطفى بن عزوز للقيام بمهمة الوساطة لوجاهته، بين علي بن غذّاهم والحكومة التونسية. زيادة على ذلك ومهما يكن، فقد ساهمت الطرق الصوفية في استمرار التواصل وتعزيز الروابط ووحدة الانتماء، وخلق صلات روحية بين سكان الجنوب الشرقي الجزائري، وتونس ومنطقة الجريد التونسي بشكل خاص.

على الرغم من الإجراءات القمعية الاستعمارية لتتقيد حركة الهجرة وما نتج عنها من انعكاسات سلبية على الحياة الاقتصادية والاجتماعية، إلا أن التواصل البشري بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس بقي مستمرًا، ومتجاوزًا كل العراقيل الإدارية والعسكرية، مكونًا بذلك أكبر جالية خلال الثلاثينيات من القرن العشرين مقارنة بكل الجاليات المغاربية أو حتى مقارنة ببقية الولايات الجزائرية الأخرى المقيمة في العاصمة التونسية، بل وصل الأمر إلى تبوء الكثير من الشخصيات أصيلي الجنوب الشرقي الجزائري مناصب قيادية في مختلف التشكيلات السياسية والإصلاحية والثقافية بتونس.

أخيرًا؛ أملنا أن نكون قد وفقنا في الجواب عن بعض التساؤلات بتوضيح ما غمض، وتحليل ما استعصى منها ومن ثَمَّ يمكن اعتبار هذه الدراسة المتواضعة قابلة للنقد والإثراء والتجاوز بحكم ما يتولد عنها من جدل ونقاش من قبل الباحثين والمهتمين.

الهَوامِشُ:

(١) أبو القاسم سعد الله، **بين الأوراس والجريد وورقلة"، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ج٥، ٢٠٠٥، ص ٢٥٥.

(2) De neuveu ed**, les khourans, ordres religieux chez les musulmans de l'algérie**, 3eme edit, alger, 1931,pp:15-38.

(٣) التليلي العجيلي،"الوضع الطرقي بالجريد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر"، **المجلة التاريخية المغربية**، العدد٧٥/٧٦، تونس، ماي ١٩٩٤، ص٣٠٧.

(٤) يحي بوعزيز، **"جهود الأمير عبد القادر وخلفائه في تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية"، الأصالة**، ع٤٨، أوت ١٩٧٧، ص:٢- ٤٢.

(٥) عبد الجليل التميمي، **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي (الجزائر – تونس – المغرب - ليبيا) ١٨١٦ – ١٨٧١**، ط ٢، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٥، ص٢٧.

(٦) يحي بوعزيز، **مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، الجزائر، دار البصائر، ص٣٢٢.

(٧) أحمد بن جابو، «أوضاع الجالية الجزائرية بتونس ما بين ١٨٣٠ .١٨٨١»، **حوليات التاريخ والجغرافيا**، ع٠٦، ديسمبر ٢٠١٢، المدرسة العُليا للأساتذة، ص ٢٣٤.

(8) Germain Marty**, les Algériens à Tunis**. tome 1, Tunis: IBLA, 1948, pp:304 –330.

(9) A.N.T .B 278.Document73, N° 5

(10) ANT, Etat Des cheiks Des Algériens, Le Contrôleur Civil Fons vice Consul de France .05-06-1919. S: A : B 1 .Document 14/2- N: 26.

(11) André Roger, Voisin, **le Souf monographie**, édition El Walid, El oud, Algérie, 2004 p243.

(12) Germain, Op.Cit. , p.330

(13) Augustin Bernard et N.Lacroix, **La Pénétration saharienne (1830-1906)**, Impr. Algérien,1906. p6.

(14) فاطمة بن سليمان، **نشؤ الدولة الترابية في تونس الأرض والهوية (١٨٨١-١٥٧٤)**، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، ص٣٠٨

(١٥) نماذج من رخص السفر بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس، للاطلاع يُنظر:A.N.T, B 1, D20,N°1-20

(16) J.J.Perennes, **Structures Agraires et Décolonisation Les Oasis de l'Oued Righ (Algérie)**, Alger, O.P.U, 1979, p. 55.

(١٧) رضوان شافو، **مقاومة منطقة تقرت وما جاورها للاستعمار الفرنسي ١٨٤٤-١٨٧٥**، مذكرة ماجستير في التاريخ المعاصر، جامعة الجزائر،٢٠٠٧، ص١٢٩.

(١٨) فاطمة بن سليمان، المرجع السابق، ص٣١٠.

(19) A.N.T, B 212, D241,N°86.

(20) A.N.T, B 78, D929,N°33.

(21) A.N.T,B 212,D239,N°5.

(22) A.N.T,B 219,D237,N°4.

(23) A.N.T,B 219,D237,N°11.

(24) A.N.T,B 212,D239,N°11.

(٢٥) جريدة المبشر، ٣٠ جويلية ١٨٨١.

(26) Delerive (R), **Forts Sahariens des Territoires du Sud**, Centre D'études sur L'histoire du Sahara, paris, 1990, pp. 41-44.

(27) Commandant Couvet, **Notes sur le Souf et Les Souafa**, B.S.G.A, 1934, p.76

(٢٨) يحي بوعزيز، **مع تاريخ الجزائر...**، المرجع السابق، ص٣٢٨.

(٢٩) يحي بوعزيز، **مع تاريخ الجزائر...**، المرجع السابق، نقلاً عن جريدة المبشر المؤرخة في ١٦ فيفري ١٨٨١.

(٣٠) نورالدين صحراوي، **المراقبة الفرنسية للحدود الشرقية وتأثيرها على التواصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس ١٨٨١-١٩٥٤ من خلال الوثائق الأرشيفية**، الملتقى الدولي حول التواصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس، جامعة الوادي، يومي ١٠-١١ نوفمبر٢٠١٣، ص٨.

(31) A.N.T, B 215, D303, N°76.

(٣٢) عبد الحميد زوزو، **الهجرة ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين (١٩١٩ –١٩٣٩)**، الجزائر، م.و.ك، ط٢، ١٩٨٥، ص:٣٥ – ٤٦.

(33) A.N.T, Rapport sur le Souf, p1.

(٣٤) رضوان شافو، المرجع السابق، ص٢٣٦.

(٣٥) عبد الكريم الماجري، **هجرة الجزائريين والطرابلسية والمغاربة الجواونة إلى تونس ١٨٣١-١٩٣٧**، تونس ٢٠١٠، ص٥٢٦.

(٣٦) رضوان شافو، المرجع السابق، ص٢٣٧.

(٣٧) محمد علي دبوز، **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**، ج٢، الجزائر: المطبعة العربية، ١٩٧١م.ص٢٠.

(٣٨) رضوان شافو، **بحوث ودراسات في تاريخ وادي ريغ**، باتنة، دار قانة للنشر والتوزيع، ٢٠١٢، ص٥٤.

(٣٩) عبد الكامل عطية، **نماذج من الرحلات العلمية للطلبة "السوافة" نحو القطر التونسي قبل اندلاع الثورة التحريرية ١٩٥٤**، الملتقى الدولي حول التواصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس، يومي ١٠-١١ نوفمبر ٢٠١٣، جامعة الوادي.

(٤٠) أحمد الخطيب، **ج.ع.م.ج وأثرها الإصلاحي في الجزائر**، الجزائر، م.و.ك، ١٩٨٥م، ص٢١٧.

(٤١) سعيدوني (نصر الدين)، **دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ أبو القاسم سعد الله**، بيروت: دار الغرب الإسلامي ٢٠٠٠م، ص٤٨٠.

(٤٢) الأرشيف الوطني التونسي (A.N.T): دفتر تأسيس تلامذة جامع الزيتونة (١٨٩٤-١٩٥٣).

(٤٣) يوسف، جفالي، **الجالية الجزائرية بجهة الكاف (١٨٨١-١٩٢٩)**، رسالة الكفاءة في البحث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، إشراف الكراي القسنطيني، السنة الجامعية (١٩٩٢-١٩٩٣)، ص٥٠.

(٤٤) العجيلي، المرجع السابق، ص٨٥-٨٦.

(٤٥) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، بيروت، دار الغرب الإسلامي،ج٤ ،ص ص:٥٠،٥١.

(٤٦) خيرالدين شترة، المرجع السابق، ص:٩٧٤-٩٧٥.

(٤٧) خيرالدين شترة، المرجع نفسه.

(٤٨) **فرحات حشاد**: من مواليد ٢ فيفري ١٩١٤م بالعباسية، وهو زعيم سياسي ونقابي تونسي. لمع نجمه بعد تأسيسه للاتحاد العام التونسي للشغل سنة ١٩٤٦م، واكتسب شعبية عارمة بين الطبقة العاملة وكل مكوّنات الشعب التونسي، اغتيل على يد عصابة من الفرنسيين المقيمين بتونس (اليد الحمراء) برادس الضاحية الجنوبية

للعاصمة تونس يوم ٥ ديسمبر ١٩٥٢م، كما يعتبر أحد أهم رجالات الحركة الاستقلالية في تونس إلى جانب الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف.

(٤٩) شهادة المجاهد حجاج عبد القادر مصورة ومسجلة، جويلية ٢٠٠٥، كما يذكر المجاهد نفسه أن أول خلية نشط معها بورقلة شملت كلاً من السادة: زوبيدي عبد القادر، شنين قدور، صفراني عبد القادر، حروز محمد، محمد الصيد برجال.

(٥٠) خيرالدين شترة، المرجع السابق، ص٣٦١.

(51) A.N.T, sérier E,B35, dossier 28.

(52) A.N.T, sérier historical, B63, dossier 758.

(٥٣) حوار مع ابن عم الشهيد الشاعر عبد القادر محمد الأخضر السائحي بمتحف المجاهد بتقرت، ديسمبر ٢٠٠٧. يُنظر أيضًا:

A.N.T, sérier E,B35, dossier 28.

(54) A.N.T: Série E, B 509, D252 **(Echabab Essoufi Ezzeitouni).**

(٥٥) عثمان زقب: **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في منطقة وادي سوف ١٩١٨-١٩٤٧ وتأثيرها على العلاقات مع تونس وليبيا**، رسالة ماجستير، (مخ)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الحاج لخضر باتنة، ص٢٠٢.

(56) ANT, op.cit- D13.

(٥٧) محمد علي دبوز، المرجع السابق، ص٢٧٥.

(٥٨) خير الدين شترة، **الطلبة الجزائريون...**، المرجع السابق، ج٣، ص٧٨.

(59) ANT, **Note –Police Spécial des chemins de fer et des ports .Tunis 12/04/1922**. SM T - B:21- D1.N° 13.

(60) ANT, **Délégué Général de la République Française à Monsieur le gouverneur Général de l'Algérie 25/09/1922.** SMNT- B19 .D2 .N°6

(٦١) مسعود كواتي، "**الكشافة الإسلامية الجزائرية في الجبل الأحمر بتونس**، الجزائر، دار هومة ١٩٩٩م، ص: ٧٨- ٨٧.

(٦٢) عمر بن قفصية، **أضواء على الصحافة التونسية**، دار بوسلامة للطباعة والنشر،١٩٧٢.

(٦٣) خيرالدين شترة، الطلبة الجزئريون ...، المرجع السابق، ص١٣٢٧،١٣٢٤.

(٦٤) خيرالدين شترة، المرجع نفسه، ص١٥٠٩.

(٦٥) الطيب العقبي، عراقيل الإصلاح جرائد الجزائر لا تطبع بتونس، **الشهاب**، ع١٤، ١٢ فيفري١٩٢٧.

(٦٦) محمد القورصو، **حول إشكالية انتشار الصحافة المشرقية والمغربية في المستعمرة الجزائرية ما بين ١٩٢٠ - ١٩٥٤**، ضمن الصحيفة وآثارها في الجزائر خلال النصف الأول من القرن العشرين، إعداد مخبر التاريخ والأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، جامعة وهران، دفتر٣، نوفمبر ١٩٩٢، ص ٥٢-٧٣.